تهويد القدس العربية ثقافياً

د. علي السيد علي محمود

كلية التربية - فرع جامعة القاهرة - الفيوم - مصر

حين تفشل بعض أو كل المحاولات، وتتحول الجهود المبذولة إلى سلسلة من الإحباطات والانتكاسات المتلاحقة، فإن المطلوب هو القيام بمراجعة شاملة جريئة وصريحة وفاعلة، يكون من نتائجها إعادة النظر في كل المعطيات على الساحة مراجعة شاملة للأفكار وقيمها، واستراتيجياتها بغية التعرف على مواضع الضعف والخطأ لمعالجتها بالاستبدال أو التعديل أو كليهما.

فوقوع القدس العربية في قبضة الاحتلال الإسرائيلي لم يكن نتيجة حربي ١٩٤٨ و١٩٦٧ فحسب، بل إلى تخطيط محكم يهدف إلى تغيير الطابع التاريخي والحضاري والديني للمدينة المقدسة على الصعيدين المادي والروحي، عن طريق غرس الإيمان بين الإسرائيليين كافة بنسبهم إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام عن طريق ابنه إسحاق عليه

السلام، بأن الرب قد تجلى لإبراهيم عليه السلام الذي جاء من العراق وقال له: لنسلك

أُعطي هذه الأرض.[١]. أو بعبارة أخرى الوعد الإلهي لهم بامتلاك هذه الأرض وحدهم، وهم بذلك يتناسون العرب الذين يعودون في نسبهم إلى سيدنا إبراهيم عن طريق ابنه اسماعيل عليه السلام، وأن الوعد الإلهي يشملهم كذلك.

كما أنهم يخططون منذ أمد بعيد لإقامة دولة يهودية خالصة على أرض فلسطين، وعليه - ومن وجهة نظرهم - فإن العاصمة لهذه الدولة وهي القدس ينبغي أن تكون كذلك يهودية خالصة [٢]. وهذا هو ما يسمونه بالحق التاريخي في استعادتهم للقدس كعاصمة. لأنها كانت عاصمة مملكة يهودا قبل حوالي ثلاثة آلاف سنة. وهذا ادعاء لا أساس له من الصحة، فالحق التاريخي مستمد من حقيقة الولادة على أرض والإقامة الطويلة المتواصلة عليها، ويهود إسرائيل اليوم لا يمتون بصلة ما ليهود فلسطين الأوائل، فهم قد تدفقوا إلى فلسطين خلال القرن الماضي من أواسط أوربا، ومن بولندا وروسيا، والولايات المتحدة الأمريكية، وهم في غالبيتهم من الخزر أنسال القوقازيين الروس الذين اعتنقوا اليهودية في منتصف القرن الثامن الميلادي، على العكس من الفلسطينيين الذي ولدوا وتربوا على هذه الأرض وأسلافهم [٣] .

ووجه الخطورة أن الصهيونية ترى أن اليهود شعب مختلف عن بقية الشعوب ولا يمكنه الاندماج فيها، لدرجة أن بعضهم قد فسروا التلمود بطريقة تسوغ لهم القضاء على الفلسطينيين واحتلال كل فلسطين. فالمسألة تحولت من عنصرية قبيحة، لتصبح تحريضا متعمدا للإبادة، وعندما يقتبس الفلسطينيون بعض وسائلهم في الإبادة يتهمونهم بالإرهاب. كما أنهم ينظرون إلى الشخصية العربية على أنها شخصية مختلفة، ففي أحد استطلاعات للرأي نشرت نتائجه عام ١٩٧١م، جاء أن ٧٦٪ من الاسرائيليين يؤمنون بأن العرب لن يصلوا إلى مستوى التقدم الذي وصل إليه اليهود [٤]. كما أن كل الصور التي ترسمها الصهيونية للعربي الفلسطيني تهدف إلى انكار أي حق له، وهم على هذا النحو مستمرون في خداع أنفسهم بشكل غير واع لخداع النفس [٥]. ويجب على اسرائيل أن تدرك ما سوف تجره سياسة حكامها الطائشة عليها، إذ لن تكون إسرائيل أعتى من

بريطانيا العظمى في مصر، وفرنسا في الجزائر، والولايات المتحدة في فيتنام، ولن يكون الشعب الفلسطيني أقل تضحية من غيره من الشعوب المناضلة في سبيل حريتها وكيانها وبقائها، أمام عمليات القهر والاضطهاد، وتشويه تاريخه وحضارته، ومحو معالمه العربية والإسلامية على يد قوة دخيلة أصبحت تهدد كيانه وكيان الأمة العربية، وتشكل خطرا على مستقبله ومستقبلها.

أشكال التهويد:

كان أول عمل قامت به السلطات الإسرائيلية في أعقاب حرب ٥ يونيو ١٩٦٧م فرض سياسة الأمر الواقع، ففي ٢٨ يونيو من تلك السنة قامت بضم القدس العربية وما جاورها إلى المنطقة الإسرائيلية، وفاجأت العالم بقرار الضم تحت شعار إعادة توحيد القدس، تمهيدا لتهويد المدينة بأسرها. وفي هذا السبيل قامت السلطات الإسرائيلية بطرد أعداد كبيرة من السكان العرب، ومصادرة مساحات كبيرة من الاراضي، وهدم أحياء بكاملها مثل حي المغاربة المواجه لحائط البراق، وتسوية منازله البالغ عددها ١٣٥ منزلا بالجرارات، وانتزاع الحي اليهودي القديم وإخراج نحو ثلاثة آلاف من سكانه العرب منه بعد فترة إنذار محدودة، ثم قامت بتسميته بالحي اليهودي وتوطين اليهود فيه، والاستيلاء على الممتلكات الإسلامية والوقف الإسلامي في هذه المنطقة ما بين هذا الحي وحارة الأرمن ما بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧٩م [٦]. إلى جانب الاستيلاء على إحدى مدارس البنات التي تضم مسجدا على مقربة من المسجد الأقصى وجعلها مقرا للمحكمة الحاخامية العليا دون استشارة إدارة الأوقاف الإسلامية التي تتبعها هذه المدرسة [٧]. كما قامت السلطات الإسرائيلية باحتلال مساكن الفلسطينين في الاحياء الإسلامية في القدس الشرقية، وإدعاء ملكيتها من قبل العديد من اليهود، وتم تتويج هذا المخطط بقيام الجنرال اريل شارون شخصياً - قبل أن يتولى رئاسة الوزراء - شخصيا باحتلال أحد المنازل الفلسطينية عام ١٩٨٧م، في الحي الإسلامي المجاور للحرم الشريف، وتم تشكيل العديد من الجماعات الاستيطانية اليهودية بالقدس، واستملاك العقارات في الاحياء الإسلامية المجاورة للحرم الشريف في قلب المناطق الفلسطينية، وذلك بتوطين أسر يهودية مختارة في وحدات سكنية يتم إنشاؤها[٨].

إزالة التسميات العربية:

وفي خلال الاسابيع الثلاثة لاحتلال إسرائيل للقدس العربية، وبعد ضم شطري المدينة وإزالة بوابة مندلباوم التي شكلت بوابة العبور بين شطري المدينة، تمت إضافة اللغة العبرية على أسماء الشوارع واللافتات، ووضعت إشارات ضوئية جديدة لتوجيه السير من البلدة القديمة وإليها [٩]. ثم بدأت عمليات التهويد تأخذ مجراها وفق خطة محكمة ودقيقة وخصوصا فيما يتعلق بتغيير المسميات العربية للمواقع الفلسطينية واستبدالها بأسماء عبرية أو ذات مظهر عبري، وذلك عن طريق «هيئة تسمية الأماكن الإسرائيلية» المرتبطة بمكتب رئيس الوزراء الإسرائيلي والتابعة له مباشرة، والتي تضم اساتذة الجامعات المتخصصين في الآثار، والتاريخ، والجغرافيا، وصناعة الخرائط من الجامعات المختلفة، إلى جانب بعض المستشارين من جامعات أمريكا وأوربا. وهي التي تقوم بعمل تفسير لسبب التسمية، ومن ثم إدخال التسميات الجديدة في الاستعمال الرسمي، وفي الأطالس وغير ذلك من النواحي الإدارية المختلفة.

وتقوم فلسفة تلك الهيئة على أساس التخلص من المسميات العربية واستبدالها بأسماء عبرية أو ذات طابع عبري، مثل استخدام بعض الأسماء التوراتية لبعض المواقع، وإطلاق أسماء الذين اسهموا في تدعيم الحركة الصهيونية أفراداً كانوا أو مؤسسات. وهناك أسماء مترجمة أو هي تحوير للمسميات العربية، وهدفها الرئيسي هو عدم ابقاء الاسم العربي بشكله ونطقه العربي.

وقد أعطت هذه الهيئة أولويات لتسميات المناطق الجغرافية الرئيسية، والأنهار الرئيسية، والأودية الرئيسية، والجبال الرئيسية، والقرى. ولمواجهة عملية تهويد المواقع العربية، فالمطلوب من الجانب العربي هو توثيق المسميات العربية لكل المواقع الفلسطينية وبسرعة وإن كانت هناك بعض المحاولات التي قد بذلت في هذا المجال من قبل بعض الباحثين الفلسطينيين وغيرهم من العرب، ولكنها محصورة في قليل من الرسائل العلمية والقليلة جداً في هذا المجال [١٠]

وإليك أيها القارئ الكريم بعض المسميات العربية، والأسماء العبرية لها، والمناطق التي تقع فيها، وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

الاسم العربي	الاسم العبري	الموقع
كل المشـــــارف	موشي حاييم شابير	التلة الفـرنسـيـة
بـاب الخـلـيـل	عـودة صـهـيـون	سـاحـة باب الخليل
طريق سليـمـان	شـــارع المظليين	باب العامود حتى ساحة النبي
طـريـق البـــراق	يهـودا هاليـفي	داخـل الســـور
تل الشـــرفـــة	جبـعـات هـمـفـتـار	القسم الشرقي من هضبة الشيخ جراح
بـاب المغـــاربة	رحـوب بيت مـحـسي	داخـل الســـور
طـريـق الـواد	رحـوب حـجـاي	من باب العامود حتى باب السور
حـــارة الشـــرف	بســفـات لمدح	داخـل الســـور
سـوق الحـصـر	حـبـاد	داخـل الســـور
عـقـبـة درويش	حـبـر حـاييم	داخـل الســـور
عـقـبـة غنيم	شـوفـيـه هالكوت	داخـل الســـور
طـريـق العـزيـز	هـاحـيـم	داخـل الســـور
طـريـق المجـاهـدين	ديرخ شـاعـر هيـروت	داخـل الســـور
هضبـة الشيخ جـراح	حـي اشـكـول	الشـيـخ جـراح
مـطـار القـدس	مـطـار عـطـاروت	مـطـار القـدس
سـاحـة هيـئـة الأمم	سـاحـة صـهـيـون	خـارج السـور
المتـحف الفلسطيني	مـتـحف روكـفلر	خـارج السـور

هذا إلى جانب العديد والعديد من الأسماء العربية الأخرى التي قامت السلطات الإسرائيلية باستبدالها بأسماء يهودية (١١). وبالنسبة للأحياء الجنوبية من القدس، فقد أصبحت كلها أحياء يهودية، وأعطيت أسماء عبرية مثل أبوطور التي أصبحت تحمل اسم غفعات حنانيا، والبقعة التي سميت غيثوليم، والقطمون التي أطلق عليها اسم غونين، والمالحة التي سميت مناحات، ودير ياسين التي سُميت كفار شاؤول، ولفتا التي سميت مي نفتواح، كما سميت عين كارم باسم مونتانا جودايا، وقرية المخايط التي سميت قرية تيبو (١٢).

الإرهاب الفكري المقنع:

حقيقة أن القوانين المدنية في إسرائيل وضعت لجميع المواطنين الإسرائيليين سواء منهم اليهود أم العرب، وأن بها مزايا تمكن الإنسان العربي الذي بقى في فلسطين بعد نكبة ١٩٤٨م أن يحافظ على حقه في وجوده وملكه وكيانه. ومنها ما يمكنه نظرياً من تشكيل هيئاته السياسية التي تعبر عن حقيقة أهدافه ومطامحه، وفيها ما يكفل له نظرياً تطوير ثقافته وتربيته، بما يتلاءم وتراثه الحضاري وتقاليده وعاداته ومستقبل وجوده، وفيها فوق ذلك كله ما يكفل له نظريا إصدار الصحف التي تنطق بلسانه وتدافع عن حقه الهضيم. ولكن لما كانت السلطات الإسرائيلية لا ترغب لهذا العربي أن يتمتع بكل هذه الحريات التي تتعارض مع حقيقة سياستها، ولما كانت لا تستطيع أن تسن قوانين خاصة لهذا الإنسان العربي في إسرائيل، وهي الحريصة على أن تبدو ناصعة الجبين أمام الرأي العام العالمي، ولما كانت أذكى من الحكومات العنصرية التي تنص قوانينها صراحة على مثل هذا التحيز، فقد وجدت من المناسب أن تحقق جميع هذه الأهداف مرة واحدة وبدون أن تثير ضجة حولها، فقد جاءت قوانينها الرسمية تكفل المساواة لجميع المواطنين لتبرز الوجه الديموقراطي الذي ترغب أن تطل به على العالم، بينما أقامت في نفس الوقت «دولة الحكم العسكري» الخاصة بالعرب لكي تضمن تنفيذ أهدافها الآنية والبعيدة في الوسط العربي بالنسبة للإنسان والأرض والعمل، بدون أن تهتز صورتها الوديعة في نظر الرأي العام سواء الداخلي أم الخارجي (١٣).

وليس أدل على ذلك من قوانين الدفاع وقوانين الطوارئ والتي تخول السلطات الإسرائيلية وخصوصا وزير الدفاع الحق في إصدار أمر بطرد أي إنسان إلي خارج

البلاد، أو نفيه أو منعه من العودة إلى وطنه، وكذلك منع أي إنسان موجود خارج البلاد من العودة إليها خصوصاً إذا كان عربياً. ومنها صلاحيات وزير الدفاع إعلان مناطق معينة، داخل قطاع معين، مناطق أمن. ويستطيع منع الدخول إلى هذه المناطق دون تصريح، ويستطيع إخراج السكان الذين يسكنون في مناطق الأمن هذه بصورة دائمة إلى خارج مناطق سكناهم بواسطة أمر يصدره، وقد تحولت عبارة «لأسباب تتعلق بالأمن» مع الوقت إلى سيف مسلط على حياة المواطنين العرب في فلسطين بوجه عام والقدس بوجه خاص. وأدت تلك القوانين إلى وجود العديد من المناطق المغلقة لا يجوز الدخول إليها والخروج منها إلا بتصريح خطي، ومن هذه المناطق عدة قرى هدمتها السلطات الإسرائيلية بعد أن طردت سكانها العرب منها، ومنها مناطق تم تخصيصها لتدريبات جيش الدفاع أو جعلها ثكنات عسكرية، أو مناطق أعلن أنها مغلقة لتسهيل مصادرتها من أصحابها العرب، وتمت فعلا مصادرتها، وتم إسكان عائلات يهودية هجرتها الحركة الصهيونية من شتى بقاع العالم في بيوت المقادسة (١٤)

ومن الإرهاب الفكري ما يحدث عندما تسمع السلطات الإسرائيلية وشاية عن معلم في إحدى المدارس، بأنه يقرأ صحيفة غير مرغوب فيها، فإنها تستدعيه فورا للتحقيق في هذه «التهمة الأمنية»، وأحيانا تلجأ إلى الوعظ والإرشاد والترغيب قبل إنزال العقاب، وعندما لا يتراجع المعلم عن رأيه يسلم في النهاية رسالة يكون نصها عادة «نظرا لأمور فنية فقد تقرر فصلك من العمل»، وفي أحسن الأحوال يتسلم رسالة تعلمه بأنه قد جرى نقله إلى مكان بعيد، ويجن جنون تلك السلطات عندما تسمع بانعقاد مؤتمر عربي من أجل الدفاع عن حق من الحقوق العربية الكثيرة المهدورة، وحتى لو كان الاجتماع مسموحا بعقده بترخيص من وزارة الداخلية، أو أي جهة متخصصة أخرى. فتفرض السلطات الإسرائيلية على بعض قيادات المؤتمر أوامر نفي مؤقتة إلى مدن يهودية أو قرى عربية نائية. وتفرض على البعض الآخر أوامر إقامة جبرية في مدنهم وقراهم، حتى لا يتمكنوا من الوصول إلى حيث ينعقد المؤتمر، مع توجيه ضغط هائل على صاحب النادي أو السينما التي ترضى بتأجير قاعتها لعقد مثل هذه المؤتمرات حى تمتنع في آخر لحظة عن تأجير المقر وينفرط عقد المؤتمر قبل انعقاده.

أما الحركات السياسية والرياضية وحتى الندوات الأدبية فإنها تعتبرها لعنة أبدية،

هدم أسس الدولة الفتية، ولا تتورع عن وصفهم باللاسامية؛ العار الذي تهدد به الحركات الصهيونية كل من يشق عصا الطاعة على إرهابها الفكري، ولائحة العقوبات والإجراءات التي تتخذ ضد المتمرد لا حصر لها. كذلك تتدخل في كتابة الأشعار، ولا تسمح بكتابة ما يمس من قريب أو بعيد حرمة السلطات الإسرائيلية، ولا تغفل عن توجيه اللوم والعقاب لمن تسمع عنه بأنه يمارسه [١٥].

ومن الإرهاب الفكري ما تلجأ إليه السلطات الإسرائيلية من فتح ملفات عبارة عن قائمة السوداء، التي تدون فيها اسم من تشاء من المواطنين العرب، هذه القوائم السوداء مفتوحة دائما، تستطيع السلطات الإسرائيلية في أي وقت تشاء أن تدرج اسم من تشاء فيها، أو تحذف منها اسم من تشاء ممن ترضى عنهم، وصحيح أنها ظهرت مع نظام الحكم العسكري للمناطق المحتلة، وإن كان هذا النظام أي الحكم العسكري قد ألغي بعد عام ١٩٦٦م، إلا أن القوانين التي يستند عليها مازال معمولا بها وحتى وقتنا الحالي [١٦].

التغريب والتغييب:

أقدمت السلطات الإسرائيلية منذ الأيام الأولى لاحتلال القدس العربية عام ١٩٦٧م، على اتخاذ عدة إجراءات تهدف من ورائها إلى تغريب أبناء القدس بوجه خاص عن الهوية العربية وتغييب وعيهم بقضيتهم وكل ما يتعلق بنواحي حياتهم، أملا في تهويد المدينة المقدسة. فمن تلك الإجراءات أنها قامت بإلغاء القوانين الإدارية التي كانت سائدة في القدس العربية، وإغلاق جميع أبواب المحاكم النظامية، ونفذت مجموعة إجراءات تهويدية وإلحاقية لهذه المؤسسات بإدارتها وإشرافها، ومن ضمنها نقل محكمة الاستئناف العليا من القدس إلى رام الله، ودمج محاكم «البداية» أي المحاكم الابتدائية، ومحاكم الصلح في القدس بالمحاكم الإسرائيلية المماثلة والقائمة بالقدس الغربية، وفصل القضاء النظامي والموظفين العرب بالقدس عن شئون الضفة الغربية وألحقته كليا بالقضاء الاسرائيلي [١٧]، وهكذا كانت عملية تصفية القضاء والإدارة العربية للمدينة المقدسة من ضمن أهم أهداف السلطات الإسرائيلة، كما عتبرت هذه السلطات عرب القدس من سكان إسرائيل، لا من مواطنيها، وامتنعت عن منحهم الجنسية الإسرائيلية، ومنعتهم من الانتخابات العامة [١٨].

وبالإضافة إلى ما فرضته السلطات الإسرائيلية من مراقبة على خطبة الجمعة في

المساجد، والتدخل في الشئون الدينية، ففي ٢١ أغسطس ١٩٦٩م، قامت هذه السلطات بمحاولة إحراق المسجد الاقصى، والقيام بحفريات وأنفاق تحت المقدسات الإسلامية، وهدم بعض الاثار ذات الأهمية التاريخية، ناهيك عن مصادرة أراض ومعابد أثرية تاريخية موقوفة، وتحويل بعض الأماكن الدينية الإسلامية والمسيحية إلى معابد أو نواد يهودية، وهذا يتفق مع المخطط الرئيسي للقدس بشطريها وهو إخفاء وطمس المواقع الأثرية، وتغيير معالم المدينة ومواقعها الأثرية والدينية والتاريخية والحضارية، علاوة على التنكر لأبسط الحقوق الإنسانية لسكانها الفلسطينيين (١٩).

ومن وسائل التغريب والتغييب ما لجأت إليه السلطات الإسرائيلية من الهيمنة على التعليم وإلغاء المناهج العربية، ففي السابع من أغسطس ١٩٦٧م ومع اقتراب موعد افتتاح السنة الدراسية، اتخذت هذه السلطات عدداً من القرارات في القدس والضفة الغربية، ففي القدس تقرر الإلغاء النهائي للبرامج التعليمية الأردنية المطبقة في مدارسها واستبدالها بالبرامج المطبقة في المدارس العربية داخل اسرائيل، ووضعت السلطات ايديها على جميع المدارس الحكومية، ومكاتب مدير التعليم الأردني في المدينة، وطلبت منه ومن موظفي مكتبه وجميع العاملين في الجهاز التعليمي الالتحاق بأجهزة التعليم الإسرائيلية الخاصة بوزارة التربية والتعليم والبلدية القسم المحتل سابقا في المدينة أي في القدس الغربية، وأصرت السلطات الإسرائيلية على تطبيق المنهج الاسرائيلي في المدارس العربية الرسمية دفعة واحدة. وفي سنة ١٩٦٩م لم تكتف بفرض البرنامج التعليمي الاسرائيلي بل قامت بإصدار «قانون الإشراف على المدارس»، ويعتبر هذا القانون حلقة أخرى من حلقات التهويد الاسرائيلي للقدس. ويستهدف الإشراف الكامل على المدارس كلها، وضرورة الحصول على تراخيص إسرائيلية. أما عن المنهج الذي تم فرضه فهو يهدف إلى طمس الهوية الوطنية العربية، ففي مادة التاريخ مثلاً يتلقى الطالب «العربي الاسرائيلي» عدداً متساوياً من الحصص في تاريخ العرب وتاريخ اليهود، وفي مادة الأدب العربي لا يشتمل البرنامج الإسرائيلي للطلاب العرب على أي ذكر للشعر الوطني العربي أو الفلسطيني، بينما يطلب من هذا الطالب دراسة الشعر العبري الحديث الذي هو في غالبيته شعر صهيوني. أما في مادة الدين فإنه يخصص للطالب العربي ١٥٦ حصة لدراسة التوراة والمشناة والأساطير اليهودية، ولا تزيد الحصص لدراسة القرآن عن ٣٠ حصة، كما أن البرنامج التعليمي الاسرائيلي يعد الطلاب لدخول الجامعات الاسرائيلية، وواضح من هذا أن

الهدف هو تصفية التعليم العربي في المدينة، وطمس شخصية الطلاب وثقافتهم وارتباطهم بتاريخهم [٢٠].

كما شملت سياسة تصفية التعليم العربي تحقيقاً لمبدأ التغريب والتغييب تدخل سلطات الاسرائيلية منذ اللحظات الأولى لدخولها القدس وإصدارها للأمر العسكري رقم ١٠٧ بتاريخ ١٩٦٧/٨/٢٩م الذي يحظر تدريس ٥٥ كتاباً مدرسياً في موضوعات اللغة العربية، والاجتماعيات، والتربية الاسلامية، والفلسفة. وبعد ثلاثة أشهر من صدور هذا الأمر قامت نفس السلطات بتعديله بالقرار رقم ١٨٣، حيث سمح باستخدام هذه الكتب بعد شطب اجزاء كبيرة منها وإخضاعها للرقابة، كما قامت أيضاً بالسيطرة على جميع المدارس الحكومية ومكاتب التربية والتعليم في المدينة، وهذا بدوره أدى إلى تحول عدد كبير من الطلبة للدراسة في المدارس الطائفية والأهلية في المدينة بعد أن تركت هذه تدرس برامجها الخاصة مما دفع السلطات الإسرائيلية للنظر بخطورة إلى هذه الظاهرة، فقامت بإصدار «قانون الإشراف على المدارس لسنة ١٩٦٩م» تحت أمر رقم ٥٦٤ والصادر بتاريخ ١٩٦٩/٧/١٧م، حيث أشرفت من خلاله على جميع المدارس في القدس بما فيها الطائفية والأهلية، لإخضاعها لبرامج التعليم الإسرائيلية، وصدر الأمر رقم ٨١٢ بتاريخ ١٩٨١/٨/٣١م منع فيه استخدام ٦٤ كتابا مدرسيا آخر في الضفة الغربية حيث منعت بموجبه السلطات الإسرائيلية تداول هذه الكتب أيضاً في مدارس القدس [٢١].

ولم تدخر تلك السلطات جهداً إلا وبذلته، حيث مارست ارهاب رجال التعليم وسجن مدير التربية والتعليم ومساعده لعدم تعاونهم معها، وقامت بإبعاد كثيرين من المعلمين، ووضعت القيود المشددة على المؤسسات التعليمية لاستيعابها، مثل فتح المدارس بالقوة، وإجبار عدد من المعلمين العرب على الالتحاق بها، وتدريس مناهجها، وفرض برامجها التعليمية للقضاء على الروح الوطنية، والقيم الروحية والحضارية العربية [٢٢].

والأخطر من هذا ما يقوم به قسم الإرشاد والتنوير العربي من دور وذلك بالتعاون مع مكتب مستشار رئيس الحكومة الإسرائيلية، هذا القسم الذي يرأسه بالطبع أحد اليهود العرب ويعاونه في ذلك طاقم من اليهود، حيث يقوم بعض العرب وكلهم من العناصر المؤيدة للسلطات المحتلة والمتعاونة مع أجهزتها المختلفة بإلقاء بعض المحاضرات هنا وهناك. بالإضافة إلى المحاضرات يقوم قسم الإرشاد هذا بتنظيم

«دورات دراسية للمواطنة الصالحة» ويعرض أفلاماً وثائقية في القدس العربية تظهر مدى تطور إسرائيل، وغالبا ما تكون دعاية للحكومة، كما ينظم رحلات عن طريق الهستدروت «نقابة العمال العبريين في فلسطين» يكون القصد منها التعرف على نواحي الحياة في المستوطنات اليهودية، ويرعى بالاشتراك مع الهستدروت بعض الصحف لسان حال السلطات الاسرائيلية بين المواطنين العرب، ومنذ عام ١٩٥٤م، وهذا القسم يشدد على ترسيخ «أن اسرائيل هنا لتبقى» وهذا هو الخط الذي يثقف به القسم المواطنين العرب، ويستعمل في هذا السبيل كل أنواع الدعاية ابتداء من «حق الشعب المختار في أرض الميعاد» ومروراً «بفلسطين بلا شعب يستحقها شعب بلا أرض» وانتهاء «بقوة جيش الدفاع الإسرائيلي الرادعة»، ولا ينسى أن يؤكد عدم وجود شعب عربي واحد وحركة قومية عربية.

والأشد خطورة من هذا أن قسم الإرشاد والتنوير هذا يقوم في سبيل تحقيق هذه الغاية بإقامة مخيم صيفي لعشرة أيام يشترك فيه طلاب وطالبات يهود وعرب، من طلاب المرحلة الثانوية، ويقام هذا المخيم في مدرسة وايزمان الثانوية في عكا والطلاب اليهود يكونون عادة ممن أكملوا دراسة أربع سنوات للغة العربية. وتقوم الجماعة المشتركة بزيارة بعض القرى العربية، وإلقاء المحاضرات التي تدور غالبا حول واجب العرب في الحفاظ على دولة إسرائيل. وهذا ينسجم تماما مع سياسة إسرائيل الاساسية. فبدلا من أن يتثقف المعتدي باحترام حقوق الضحية، يتم تثقيف الضحية للمحافظة على المعتدى واحترام وتبرير اعتدائه. إن نصف ميزانية هذا المشروع يقدمها مكتب مستشار رئيس الحكومة الإسرائيلية، والباقي من وزارة التربية، ومن الطلاب المشتركين. ويتضح إدراك الفلسطينيين لخطورة ما يقوم به هذا القسم الإعلامي من إطلاقهم عليه اسم «الإفساد والتجهيل» بدلا من اسم «الارشاد والتنوير»[٢٣].

وينبغي أن نشير إلى أن الاتجاه العام للسياسة الاسرائيلية تجاه المقدسات الأخرى يقضي بالسيطرة التدريجية على تلك التي تتشارك في تقديسها الديانتان اليهودية والإسلامية، وخصوصاً الحرم الشريف، والتقليل التدريجي للروابط الدينية والحضارية والثقافية بين المدينة ومقدساتها وبين اتباع الديانتين الإسلامية والمسيحية في انحاء العالم، والعمل في الوقت نفسه على تعزيز مكانتها دينياً وتعبدياً في نفوس اليهود وضمائرهم لتحويلها إلى عاصمة دينية، بعد تحويلها إلى عاصمة سياسية

وإدارية [٢٤]. فقديمة هي أطماع الصهاينة في القدس، قدم أحلامهم في إعادة بناء الهيكل المزعوم، هيكل سليمان عليه السلام. وبعد حرب ١٩٦٧م واستيلاء إسرائيل على القدس العربية والمسجد الاقصى، بدأت عملية التسريع، فاستصدرت أمراً بأحقيتها في الإشراف على حراسة ما يسمى «جبل البيت» أي جميع الأراضي التي يقوم عليها الحرم القدسي [٢٥] وتبذل السلطات الإسرائيلية كل جهد ممكن لطمس معالم المدينة المقدسة الإسلامية، من ذلك ما حدث في شهر ديسمبر ١٩٧١م عندما قامت وزارة الأديان الإسرائيلية بإجراء بعض الحفريات تحت سور الحرم الغربي شمالي حائط البراق، مما سبب انهياراً جزئيا في أحد الآثار الاسلامية الهامة وهو «رباط كرد» والذي يقع ملاصقا لسور الحرم على يمين الخارج من الحرم من باب الحديد، هذا الرباط انشأه أحد امراء السلطان المنصور قلاوون وهو الأمير كرد سنة ٦٩٣هـ /١٢٩٢م وأرادت الوزارة أن تستغل الفرصة لهدم البناء كله لإنشاء ميدان ثان مثل ذلك الذي أنشاته عند حائط البراق وفي منطقة إسلامية بحتة، لولا ما أثاره انهيار مثل هذا الأثر الإسلامي من ضجة في الأوساط العلمية والأثرية العالمية، وهو الأمر الذي أدى إلى وقف أعمال الهدم والحفر تحت المبنى و إلى وضع دعامات لمنع انهياره العام إلى أن يتخذ قرار بهذا الشأن [٢٦].

ومن أساليب السلطات الاسرائيلية للتغريب والتغييب وخصوصاً بعد ضم القدس الشرقية، وخضوع التعليم فيها للنظام الاسرائيلي، فرضها على أبناء المدارس أن ينشدوا كل صباح النشيد الوطني الاسرائيلي «الهاتكفا» [٢٧].

ومن الأساليب التي اتبعتها اسرائيل لتهويد أبناء القدس ضمن مخططها لتغريبهم وتغييبهم، استغلال النشاط الثقافي للدائرة العربية في الهستدروت «أي نقابة العمال العبريين في فلسطين» ثم تحول اسمها في عام ١٩٥٩م إلى «نقابة العمال الاسرائيليين وسمح للعمال العرب بالانتساب إليها، بث برامج ثقافية في القرى العربية الهدف منها ترويج الدعاية الاسرائيلية بين المواطنين العرب، وما نجم عن ذلك من افتتاح حوالي ٢٦ ناديا، ومركزا في الوسط العربي، وغالبا ما تكون هذه النوادي بلا مكتبات، وإن وجدت فهي تحتوي على بضعة كتب دعائية أو روايات غرامية تعيد دور النشر الاسرائيلية نشرها بعد أن تكون قد صدرت في الدول العربية، وتختار منها الكتب التي تنطوي على مجرد التسلية فقط. واحياناً قد يكون في هذه النوادي «طاولة تنس» وفي أحيان أخرى يتحول النادي إلى مجرد مكان لتجمع الشباب وللعب الورق «الكوتشينة»

وشرب الشاي والقهوة. كل ذلك بسبب إحساس الشباب بأن سكرتير هذا النادي أو بعض أعضاء الهيئة الإدارية ما هم إلا عملاء للمخابرات الاسرائيلية يستغلون تجمع الشباب حتى يتجسسوا على أفكارهم وأقوالهم وأفعالهم. أما بالنسبة للنساء والفتيات، فإن الفرع النسائي في الهستدروت يقوم ببعض الأنشطة في القرى والمراكز العربية، مثل تدريب بعض الفتيات على أعمال التدبير المنزلي والخياطة، والقصد من ذلك هو تجمع أكبر عدد من فتيات القرية لممارسة رياضة تحبيب الدولة ومؤسساتها لهن وتهيئتهن لانتخاب حزب ماباي في انتخابات الكنسيت. وحسب تقدير السلطات فإن الهستدروت تصرف سنوياً حوالي ٣٥٠ ألف ليرة إسرائيلية، بما فيه أجرة المراكز ومعاشات الموظفين والمرشدين والمرشدات، وتشرف على هذا المجلس يهودية من أصل عراقي (٢٨). ومن إنجازات الهستدروت في الوسط العربي أنها تمنح كثيرا من الطلبة الذين يحمل آباؤهم أسهماً في التعاونيات التي أقامها مركز التعاون في الهستدروت بالتعاون مع الدائرة العربية والتي أقيمت لتزويد القرى بمياه الشرب منحاً لمتابعة دراستهم الثانوية. كما أن منظمة الشبيبة العاملة في الهستدروت فتحت في ٢٠ مركزا صفوفاً تكميلية. وقد أقامت الدائرة العربية في الهستدروت في عام ١٩٦٦م دورة مدتها ثلاثة أشهر، الهدف منها تدريب خريجي المدارس الثانوية، وقد تخرج من هذه الدورة ٣٦ طالباً، وجد ١٢ منهم فقط عملاً في المجال الذي تدربوا عليه (٢٩).

التمويه على الرأي العام العربي والعالمي:

كما تجرى محاولات من جانب الهستدروت للتمويه على الرأي العام العربي الذي يشك في كل نشاطات الهستدروت في الوسط العربي، عن طريق جهاز سمي «الاتحاد الإسرائيلي للصداقة والتفاهم» هدفه إقامة علاقات شخصية بين العرب واليهود، ظاهرها التفاهم وباطنها غسل دماغ جماعي للمواطنين العرب بشتى الأساليب والحجج حتى ينسلخ العرب عن القضية الفلسطينية وبالتالي عن الشعب الفلسطيني والأمة العربية. وأغرب ما في الأمر أن فرسان الدعاية في هذا التنظيم يلجأون إلى أسلوب ديماجوجي وأول ما يواجهون الجمهور يطلبون منه أن لا يتخلى عن دينه أو عن قوميته العربية ويصبح يهودياً أو صهيونياً. كل ما هنالك عليه أن يكون مخلصاً لإسرائيل. ومتفهماً لأهدافها الحضارية في المنطقة. وأن يكون بعيدا عن كل الأمور السياسية التي من شأنها أن تجلب له «وجع الرأس» وتجلب الويلات للعرب في إسرائيل. هكذا يتوجهون للمواطن (٣٠).

كذلك تقوم الهستدروت باستغلال بعض المثقفين من الشخصيات العربية في رحلات خارجية للدعاية وخاصة إلى أمريكا وكندا، ليضللوا الرأي العام العالمي حول حقيقة أوضاع العرب في اسرائيل، فيظهرونهم وكأنهم يعيشون في جنات النعيم، ويظهرون الحكومة الإسرائيلية وكأن تثقيف العرب وتطويرهم هو فقط شغلها الشاغل وتشرح مدى تطور المرأة العربية في ظلال الديمرقراطية والعدالة الاسرائيلية [٣١].

احتواء عرب القدس:

ومن محاولات تفريغ القدس وتهويدها مشروع المركز التجاري الرئيسي، ويقوم هذا المشروع على مساحة تبلغ حوالي ٢٧٠٠ دونما، أي حوالي ٦٧٥ فدانا في الجهتين الشمالية والشمالية الغربية للقدس العربية أو البلدة القديمة، والهدف منه تهويد قلب المدينة العمراني ومعالمها العربية، وأن يكون ذريعة لإجلاء سكان الأحياء العربية عن منازلهم واستبدالهم بالسكان والمتاجر اليهودية، ثم إزالة المعالم الحضارية والأسماء العربية، واستبدالها بأخرى يهودية. كما أن الهدف من هذا المركز هو امتداد البناء في جميع الجهات بحيث تبقى المدينة القديمة أي القدس الشرقية في الوسط وهذا يعني عملياً تدمير الشكل الحضاري للمدينة القديمة، وحفر عدد من الأنفاق أسفل الاحياء المركزية الحيوية والمأهولة. وبناء على الخطة سيقوم المركز التجاري على الاحياء العربية التالية:

أ- حي باب الساهرة، ويضم شوارع صلاح الدين، وبورسعيد، والرشيد، وقسماً من شارع الملك حسين، وكلها أحياء سكنية وتجارية وسياحية ومدرسية ومكتظة بالسكان العرب.

ب- حي باب العمود، خارج السور، ويضم طريق نابلس وقسماً من شارع الملك حسين، وهي معاً تشكل قسماً آخر من المناطق التجارية والسكانية والمدرسية والدينية، وكلها مكتظة بالسكان العرب.

جـ- حي الشيخ جراح، ويضم مناطق سكنية، ومدرسية وسياحية وتجارية وكلها مكتظة بالسكان العرب.

د- أجزاء من أحياء المصرارة، وسعد وسعيد، وجميع هذه الأحياء من المناطق العربية التي تم احتلالها من قبل إسرائيل في يونيو ١٩٦٧م، ويسكنها ويعمل فيها أكثر من ثلاثين ألف عربي [٣٢].

مشروع القدس الكبرى:

وعلى الصعيد العمراني أيضاً هناك مشروع على جانب كبير من الخطورة وهو مشروع «القدس الكبرى»، هذا المشروع يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب حوالي ٤٥ كيلو مترا، ومن الشرق إلى الغرب حوالي ١٥ كيلو مترا، وتبلغ مساحته الإجمالية حوالي ٤٤٦٢٧٩ دونما، أي حوالي ١١١٥٧٠ فدانا، وضعت خطته السلطات الإسرائيلية، وحددت لتنفيذه الفترة من عامي ١٩٨٢م و٢٠٠٢م، ويضم مدن القدس، ورام الله، والبيرة، وبيت ساحور، وبيت جالا، وبيت لحم، بالإضافة إلى ٦٠ قرية عربية، وتمتد حدوده من قرية سانجيل «سنجل» في رام الله شمالا إلى قرية بيت نجار جنوب الجليل، والخان الأحمر شرقا.

وقد تم تخصيص ١٣٪ من مساحة المشروع للإسكان العربي في المنطقة المسماة بالمنطقة «الحمراء»، بينما تم تخصيص ١٧٪ للإسكان اليهودي في المنطقة المسماة بالمنطقة «الصفراء» كما تم تخصيص حوالي ٦,٥٪ منطقة للحدائق العامة وهي المسماة بالمنطقة «الخضراء» وتم تخصيص مساحة ٤٪ من المشروع لإقامة الطرق العامة. أما المنطقة المخصصة للزراعة فهي حوالي ٥٩,٥٪، ولقد نفذت السلطات الإسرائيلية خطوات واسعة على طريق تحقيق هذا المشروع، عن طريق ضم المدن المذكورة أعلاه إلى القدس، كما تم الاستيلاء على مساحات واسعة من الأرضي العربية، وإقامة المستعمرات اليهودية أو معسكرات الجيش الإسرائيلي فوقها.

وأبرز أهداف هذا المشروع ضم جزء كبير من أراضي الضفة الغربية إلى اسرائيل، وعزل القدس عن الضفة الغربية، وتجزئة الضفة الغربية جغرافياً، وتفتيت التجمعات السكانية العربية بواسطة الطرق الرئيسية بالقدس، والتي تخدم المستعمرات الاسرائيلية والحركة والتحركات العسكرية الأمنية لها، وبالتالي تحويل المدن العربية إلى مجرد أحياء صغيرة في إطار هذا المشروع، ومنع المواطنين العرب من البناء على مساحات واسعة من الأرض.

يضاف إلى هذا إحاطة التجمعات السكانية العربية داخل القدس بأربعة أطواق استيطانية يهودية الهدف منها محاصرة التجمع العربي داخل اسوار القدس والعمل على تفتيته وترحيل سكانه، والإكثار من المستوطنات اليهودية، في كل جهات المدينة المقدسة، فضلا عن أن هذه الاطواق الاربعة تعزل سكان المناطق العربية عن القدس

وعن بعضها البعض، بل وعن المناطق الحدودية العربية، كما نتج عن ذلك ارتفاع عدد السكان اليهود في قطاع القدس إلى ٣٦١ ألفا حسب إحصاء ١٩٩٠م، أما السكان العرب فقد بلغ مجموعهم ١٤٠ ألف نسمة في نفس العام (٣٣).

وإلى جانب ذلك المشروع هناك بعض الآمال الإسرائيلية والمخططات لزيادة عدد اليهود في القدس الموحدة خلال السنوات القليلة من ٣٦١ ألفا إلى ٧٥٠ ألفا عن طريق مشروع يسمى «بوابات القدس» الذي يقضي ببناء مساكن استيطانية جنوب مدينة بيت المقدس تستوعب ١٠٠ ألف عائلة من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق، تضم حوالي ٤٠٠ ألف نسمة. كما أن هناك خطة ترمى إلى توطين أعداد كبيرة من اليهود في المناطق الفاصلة بين الأحياء العربية والمستعمرات اليهودية في منطقة القدس، بحيث يصبح المستوطنين اليهود فيها أغلبية، في حين يتحول العرب إلى أقلية، وبهذا يتحقق لليهود تذويب الوجود العربي في المدينة أملاكا، وسكانا، واقتصادا، وحضارة، وآثارا(٣٤).

تفريغ المدينة المقدسة من العرب:

وتحت عنوان الصراع الديموجرافي في القدس أيضاً، وضعت السلطات الإسرائيلية المخططات والمشاريع التفريغية المتلاحقة ضد القدس، والتي كان أقربها وأبرزها مشروع شارون لتسمين المستوطنات اليهودية القائمة في القدس وحولها، وإقامة المزيد من المستوطنات، بحيث يجري إقامة طوق استيطاني كامل حول المدينة، يرفع عدد المستوطنين فيها إلى نحو مليون يهودي (٣٥). ليس هذا فحسب، بل إن السلطات الإسرائيلية حرصا منها على تهويد السكان العرب في فلسطين بوجه عام والقدس بوجه خاص، لجأت إلى محاولة محو الهوية العربية للسكان العرب عن طريق محاربتها للعادات القديمة التي يتميز بها سكان فلسطين وأن تختفي أمام موجة العادات الغربية المتزايدة يوما بعد يوم (٣٦).

وعلى الصعيد العمراني، واستمراراً للسياسة ذاتها الهادفة إلى تفريغ المدينة المقدسة وتهويدها، عملت السلطات الإسرائيلية منذ ١٩٦٧م على عرقلة وتعطيل وشل قطاع البناء العربي في منطقة القدس، بغية محاصرة السكان العرب في أماكن سكنهم أولا، والضغط عليهم بحكم التزايد السكاني والازدحام المتزايد لإجبارهم على الرحيل عن القدس، تمهيدا للاستيلاء على مزيد من الاراضي وإقامة مستعمرات يهودية

عليها. فوضعت السلطات البلدية إجراءات وشروط معقدة لمنح رخص البناء للمواطنين العرب ، والإبطاء بقدر الإمكان في التوسع العربي، إضافة إلى الرسوم الباهظة على العرب المتقدمين بطلبات الحصول على رخص البناء مما يضطرهم إلي الانسحاب والتراجع وعدم استكمال إجراءات الحصول على التراخيص. بل وأمام عمليات العرقلة هذه اضطر عدد من المواطنين العرب في مراحل متفاوتة إلى بناء مساكن لأفراد عائلاتهم خارج حدود أمانة القدس. كذلك لجأت السلطات الإسرائيلية إلى هدم البيوت غير المرخصة التي تم بناؤها في القدس. فعلى سبيل المثال تم في عام ١٩٨١م هدم ما مجموعة ٥٤٨ بيتا، هذا غير ما يتم هدمه من منازل في منطقة القدس منذ الانتفاضة وهي نهاية ١٩٩٠م، كما أغلقت العديد من المنازل لسبب أو لآخر. وقد أشارت الإحصاءات الواردة من الأراضي المحتلة إلى أن السلطات الإسرائيلية قد استولت على نحو ٥٦ ألف دونم أي حوالي ١٤ ألف فدان من أصل ٦٣ ألف دونم أي حوالي ١٧٧٥٠ فدانا هي مساحة القدس الشرقية حسب الحدود البلدية التي رسمت عام ١٩٦٧م للمدينة [٣٧].

وينبغي أن نشير إلى أن السلطات الإسرائيلية تعمل جاهدة وبكل وسعها على زيادة نسبة الوفيات عند العرب بحيث تصل إلى ضعف ما هي عليه عند اليهود، من خلال إهمال الرعاية الصحية المفروضة لهم، وعدم صرف الأدوية الضرورية واللازمة لعلاجهم. سواء عن طريق المستشفيات التابعة للهستدروت، أو وزارة الصحة، والانخفاض المستمر في ميزانية الخدمات الصحية التي تقدم لهم.

تجهيل المقادسة بتراثهم:

هدفت السلطات الإسرائيلية ومازالت تهدف إلى تجهيل أبناء المواطنين الفلسطينيين بوجه عام والمقادسة بوجه خاص بتراثهم وحضارتهم، وتشويه تاريخهم، مقابل تقديرهم وتمجيدهم للقيم الثقافية والحضارية الخاصة بالمجتمع الاسرائيلي، بهدف إيجاد إنسان يتقبل الاحتلال الإسرائيلي ومؤسساته وممارساته الاستيطانية، ويرضى به كأمر واقع، بل ويفخر بهذا الواقع وانتمائه له إذا ما قورن بالشعوب المجاورة، ومراهنة بذلك على عامل الزمن في خلق هذه الاتجاهات. كما سعت هذه السلطات ومازالت تسعى إلى استيعاب السكان الفلسطينين، وتشكيل اتجاهاتهم الفكرية، والسيطرة على عقولهم، على أساس مفهوم «العدمية القومية والثقافية

للسكان الأصليين» أي على أساس تلاشي القومية والثقافة العربية، من خلال محاولات السلطات الإسرائيلية فرض سياستها التربوية والتعليمية على السكان في فلسطين بوجه عام والقدس بوجه خاص [٣٩]. والعمل على فتح الباب كاملاً أمام المواطنين العرب على المجتمع الاسرائيلي، بهدف احتوائهم، وتعزيز مشاعر الإحباط لديهم، وتفريغ دوافع رفضهم ومقاومتهم لإجراءات الاحتلال. وقد أدى ذلك إلى فتح عيون بعض المقادسة بوجه خاص وبعض الفلسطينيين بوجه عام على لون جديد من الحضارة يمثله هؤلاء المستوطنون اليهود، بمنظومتهم القيمية، ذات العادات والتقاليد المنفتحة، والمنتمين بنسقها القيمي للحضارة الغربية، وممثلة لها في المنطقة [٤٠].

وفي الحقيقة أننا مطالبون بنشر الوعي الثقافي بين أبناء بيت المقدس وفلسطين، وبوجه خاص فيما يتعلق بآثار المدينة المقدسة وتراثها، ذلك أن عملية التجهيل هذه بدأت تظهر آثارها بين الفلسطينيين أنفسهم وبين جيل الشبان المثقفين والذين نعقد عليهم الآمال. فقد قرأت في إحدى رسائل الماجستير في التاريخ الحديث، وهي تتحدث عن الاستيطان الصهيوني في حديث مؤلفها عن مقبرة ماملا العبارة الآتية: (ماميلا «كفار دافيد» منطقة كانت مهجورة تقع غرب السور الغربي للبلدة القديمة للقدس. قامت إسرائيل بمصادرتها عام ١٩٧٠، وفي عام ١٩٧٣م قامت شركة تطوير القدس اليهودية بإعداد مشروع لتحويلها إلى منطقة سياحية، تم تنفيذه عام ١٩٩٣م) دون ذكر أي شيء عن تاريخها الطويل [٤١]. إلا أن الحقيقة التي يجب أن يعلمها أمثال هذا الشاب المثقف هي أن الأمم المتقدمة حقاً لهي أكثر الأمم محافظة على آثارها وتراثها، وأن مقبرة ماملا هي كبرى مقابر بيت المقدس الإسلامية وأوسعها شهرة، وتبلغ مساحتها ١٦٨ دونما أي حوالي ٤٢ فدانا، وهي تقع خارج المدينة القديمة إلى الغرب على بعد حوالي ميل واحد من باب الخليل. وارتبط اسم المقبرة بكثير من الأحداث التاريخية التي مرت بالقدس ومنها الفتح الصلاحي للقدس، وظلت تستعمل كمقبرة حتى سنة ١٩٢٧م، عندما أمر المجلس الإسلامي الأعلى بوقف الدفن فيها، بعد أن اتسع عمران القدس وأصبحت المقبرة في وسط المدينة فضلاً عن امتلائها بالقبور، وقد أورد المرحوم الاستاذ الدكتور كامل جميل العسلى أسماء حوالي ١٥٠ شخصا دفنوا فيها؛ فيهم الأمراء والعلماء والأولياء والمتصوفون والشهداء والمجاهدون، بما يؤكد أنها مقبرة جليلة القدر، ولها مكانة عريقة في التراث، وبسبب هذه المكانة الجليلة لمقبرة القدس ماملا وللمدفونين فيها كانت المقبرة من الأماكن المقصودة للزيارة في

بيت المقدس سواء من أهل بيت المقدس نفسها أم من الحجاج المسلمين الوافدين إليها. ومنذ الاحتلال اليهودي عام ١٩٤٨م عمدت إسرائيل إلى محو كل أثر لها، فأقامت عليها فندق بلازا المشهور، وعددا من مواقف السيارات والطرق التي غيرت معالمها[٤٢].

وعلى العرب جميعا في كل مكان أن يكونوا على وعي تام بكل مخططات إسرائيل، وبذل المساعي لدى المجتمع الدولي للتصدي لتلك المخططات، ومن الجدير بالذكر أن قرار تنشيط الاستيطان الاسرائيلي في منطقة القدس، قد زامن قرارات مؤتمر الرباط والأمم المتحدة بشأن القضية الفلسطينية، وقرار اليونسكو الداعي إسرائيل إلى عدم العمل على طمس معالم القدس العربية، مما دفع إسرائيل إلى سياسة الجسور المفتوحة على جسري نهر الأردن وبخاصة في فصل الصيف والتي كان الهدف الأساسي منها هو تغيير صورة إسرائيل في أذهان عرب المناطق المجاورة وخصوصا الأردن. ويجب ألا ننسى ما جاء في جريدة الأهرام يوم الثلاثاء ٢٨/١٠/٢٠٠٣م من أن إسرائيل دائمة التفكير ودائمة التغيير في مشروعاتها، وأن أحدث محاولة لتهجير الفلسطينيين هو ما يجرى في العراق عقب الاحتلال الامريكي - البريطاني له من قيام السلطات الاسرائيلية بإرسال عدد من اليهود إلى العراق لشراء كثير من المناطق الزراعية ما بين دجلة والفرات تمهيدا لتهجير الفلسطينين العرب إليها واستيطانهم بها، ومنهم عرب القدس، بعد أن فشلت سياسة تهجيرهم إلى البلدان العربية الأخرى، أو لقيت معارضة شديدة [٤٣].

هكذا يتضح لنا أن التهويد الثقافي للقدس قد اتخذ عدة اتجاهات جنباً إلى جنب مثل تحويل انتباه الشباب الفلسطيني إلى أمور المال والدنيا بدلا من توجيه الاهتمام إلى قضايا الوطن والأرض، عن طريق المزيد من المصارف لتحسين أحوالهم المعيشية، وتحسين مستوى معيشتهم. كذلك شمل التهويد إحلال العمال اليهود أو ما يعرف بالعمل العبري محل العمال العرب، وقد استخدمت أموال الهستدروت لتعويض الرأسمالية اليهود عن الفرق بين العمالة اليهودية المرتفعة الثمن، والعمالة العربية الأقل تكلفة [٤٤].

كما امتدت عمليات التهويد إلى خارج فلسطين والقدس في أنحاء كثيرة من الشرق، والتمهيد لذلك عن طريق إنشاء عدد كبير من المدارس اليهودية في كل من المغرب، وسوريا، والعراق، وتونس، وإيران وغيرها من بلدان العالم، التي كان الهدف

ويبقى الأمل:

إن فلسطين التي ارتوت أرضها بدماء الآلاف من الشهداء الذين ضحوا بارواحهم فداء فلسطين، لا يمكن أن تستكين لقوى الشر والدمار، وشعلة النضال الفلسطيني ستظل عالية خفاقة ترفض الاستسلام وتقاوم الاحتلال وتتمسك بالأرض التي شهدت منذ فجر التاريخ وحتى اليوم صراعاً مستمراً بين الحق والباطل. كما أنه من الأهمية بمكان إعادة إيجاد رأي عام عربي واع مستنير بهذه القضية يساهم في إعادة الحق إلى نصابه (٤٦).

وإذا كانت إسرائيل بتصرفاتها الطائشة، تعمل جاهدة على تهويد القدس، فإننا نستطيع أن نقتبس من هرتزل الزعيم الصهيوني في مقولته الشهيرة: «إن الاستعمار ذاته يخلق الجرثومة التي تقضي عليه»، وهي بهذا لم تفهم قانونا تاريخيا ينطبق على الاستعمار بكل أنواعه. وإذا تمت عملية التحديث (٤٧). فإن أبناء الأمة العربية لابد من أن يتمكنوا من توجيه الضربة القاضية لهذا الجيب الاستيطاني الحديث، مادام لا يريد أن يعيش في سلام مع جيرانه الذي قبلوه على مضض.

كما تبقى مسألة هامة وهي عامل الزمن، فكما قال يهود باور «لا توجد جماهير يهودية تدق على بواباتنا بل العكس إن أغلبية اليهود السوفيت تدق على بوابات أمريكا، أما يهود آسيا وأفريقيا فهم هنا في إسرائيل وإما في فرنسا، ولم يبق سوى بقايا صغيرة منهم ولن يأتي يهود العرب الآن ولا في المستقبل القريب، اللهم إلا أقلية صغيرة.

وإذا كانت إسرائيل تبني سياستها وآمالها المستقبلية. على ظاهرة تزايد النزوح، وأن أعداد النازحين إليها في تزايد في الآونة الأخيرة، فإن معدلات النزوح وصلت إلى أدنى. ولابد لها من أن تتكسر وتأخذ في الهبوط، بدليل أن مدينة بيت المقدس التي شهدت إقامة كثير من الأحياء الاستيطانية حولها مثل جيلو، وراموت، ورامات اشكول، انخفض عدد سكانها من اليهود من ٧٤٪ من مجمل عدد السكان إلى ٧٠٪، ولا يزال يعمل أخذاً في الهبوط، كما أن كثيراً من المستوطنات في الجليل والنقب بدأت تفقد سكانها.

ومن الأمل أيضاً أن هناك بوادر صراع حاد بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين،

فالشرقيون هم يهود وطليعة الشعب اليهودي القتالية، ودون أن يشاركوا في صنع القرار بما يتناسب مع عددهم، ودون أن يتحركوا إلى قمة الهرم، فإنهم إن تطلعوا إلى المشاركة في صنع القرار والصعود إلى قمة الهرم ففي هذا الانهيار الكامل للأيديولوجية الصهيونية، ولا يوجد في تصوري حل لهذه الإشكالية الآخذة في الظهور[٥٠].

ومن الأمل أيضاً أنه مع الانكماش اليهودي في العدد والهوية - حدث تمدد عربي على المستويين نفسيهما - أي أن العربي بدأ يقرع بشدة لم يعهدها المستوطنون المستنيمون إلى الحلم الصهيوني وإلى قوة القمع الصهيونية من قبل، وقد حدث هذا التمدد نظرا لأن الفلسطنيين منذ البداية أدركوا الطبيعة الإحلالية للغزوة الصهيونية، ومن هنا بقيت مئات الألوف الأخرى التي اضطرتها الظروف الاقتصادية للهجرة تعود كل يوم، ما استطاعت، للمساهمة في الحصاد ولتثبيت العناصر البشرية التي بقيت، ولتزويدها بالعون المادي والمعنوي[٥١].

ومن الأمل أيضاً أن الفلسطينيين منذ اشتداد الغزوة الصهيونية وهم يدركون، ربما بشكل غريزي غير واع، أنها غزوة سكانية استيطانية، إحلالية، ولذا تصل معدلات الإنجاب بينهم إلى أعلى المعدلات في العالم، ومع استمرار المعدل الحالي في الزيادة فإن عدد اليهود وعدد العرب سيكون متساويا عام ٢٠١٥م، وهذا ما دفع الاستاذ آرنون سافير أستاذ الجغرافيا الإسرائيلية إلى القول: «إن السيادة على أرض إسرائيل لن تحسم بالبندقية أو القنبلة اليدوية، بل ستحسم السيطرة من خلال ساحتين: غرفة النوم والجامعات، وسيتفوق الفلسطينيون علينا على هاتين الساحتين خلال فترة غير طويلة[٥٢].

ويبقى الأمل دائما، ذلك أن خمسين سنة أو أزيد قليلاً ليست شيئا يذكر في أعمار الشعوب والدول، فإذا كانت إسرائيل قد ورثت عن الغرب الأوروبي نظرية دارون الاجتماعية في أنه «لابد للشعب الأضعف من أن يتقلص ويختفي أمام الشعب الأقوى». فإنه واجب الشعوب العربية بوجه عام والشعب الفلسطيني بوجه خاص أن يدركوا هذه الحقيقة جداً ويضعونها نصب أعينهم دائماً، وألا يتسرب اليأس إلى نفوسهم لحظة واحدة.

الأمل لاحت بوادره:

وإذا كان رئيس الحكومة الإسرائيلية يتبجح منذ فترة بجلب نصف مليون مهاجر من يهود الارجنتين، فإذا بوسائل الإعلام الاسرائيلية تتحدث عن نزوح ٦٥٠ ألف إسرائيلي إلى الولايات المتحدة، وهؤلاء ليسوا من المهاجرين الروس مثل الذين وفدوا إلى اسرائيل خلال العقد الأخير، وإنما من «النخبة» كما وصفتهم جريدة يديعوت أحرونوت وأبرزت من بينهم ابنى اسحاق رابين، يواف ودالية، اللذاين «باعا منزل العائلة في تل أبيب ونزحا إلى أمريكا، لأن الحياة هناك أفضل، وفي نفس الوقت اتجه يهود الارجنتين الذين فتح لهم شارون ذراعية إلى كندا وإلى بلاد العم سام. وأصبح واضحا أن سياسة شارون الاستعمارية تقوم على اتصال مباشر بين الاراضي الفلسطينية والدول العربية المحيطة بفلسطين، فقد سعى شارون إلي تحويل سهل الاردن إلى حزام عازل بين فلسطين والمملكة الأردنية، والذي يمتد من نقطة تقع جنوب بيسان الواقع في ضواحي منطقة طبريا ولغاية البحر الميت في الجنوب، وبما أن المنطقة شبه صحراوية، وبالتالي مقفرة وموحشة، ولم تقم فيها سوى ١٨ مستعمرة معظمها فقط كيبوتسية، أي أن الأراضي لمؤسسة الاستيطان الحكومية «الكيرن كيمت»، والسكان يعملون عليها ليرتزقوا، لكن الأمن معدوم لذلك لم يزدد عدد المستوطنين عن ١٥٠٠ نسمة ومعظم المستوطنات خالية.

وكانت الانتفاضة التي وصفتها جريدة يديعوت أحرونوت في ٢٠٠٣/١٠/٢٣م بأنها قلبت الحياة في سهل الأردن رأسا على عقب، حيث أن المستوطنين لم يتعودوا العيش بجوار قرى معادية، ولم يعتادوا العيش تحت مطر الحجارة التي تقذف صوبهم، كما أنهم لم يعتادوا السفر في حافلات مصفحة بألواح حديدية، وفجأة وجدوا أنفسهم في قلب حلقة العنف وفي عزلة.

والمصير نفسه سيصدم الحكومة الإسرائيلية في منطقة حالوتسا الممتدة نحو مائة كيلو مترا على الحدود المصرية، في إطار مساعيها لإقامة حواجز تفصل بين العربي وأخيه. كما ان استخدام العنف ضد الفلسطينيين من أجل تخويفهم لم يثبت فقط فشله، بل إنه انعكس بالسلب على صورة الدولة العبرية وذلك من خلال الاستفتاء الذي اجرته مؤخراً إحدى اللجان التابعة للاتحاد الأوروبي على عينات من الشعوب الأوروبية التي أكدت نتيجتها أن إسرائيل هي أكثر دول العالم خطراً على السلام العالمي.

كما أن الاستياء الذي بدأ يسود الكثيرين من الاسرائيليين بسبب فشل الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة في تحقيق السلام، يظهر هذا من الإنذار الذي وجهته الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة مؤخرا جماعة من رجال الأمن السابقين، هذا فضلا عن امتناع العشرات من الطيارين الإسرائيليين في الفترة الماضية عن قصف المدنيين الفلسطينيين (٥٤).

وستحل القضية الفلسطينية ، وتقوم دولتان فلسطينية وإسرائيلية وسيكون الخلاف حول القدس، ومع هذا فإن الأمل قائم إذا استفدنا من تراثنا الحضارى ، بوجه عام والتاريخى بوجه خاص للدفاع عن عروبة القدس • ولدينا من تراثنا التاريخى مجموعة وثائق الحرم القدسى الشريف ، وهى من أضخم مجموعات الوثائق العربية التى تم الكشف عنها ما بين عامى ١٩٧٤ و١٩٧٦ فى المتحف الإسلامى الواقع داخل الحرم القدسى الشريف ، وتضم حوالى ١٥٠٠ وثيقة يرجع تاريخ معظمها إلى أكثر من سنمائة عام ، وهى وثائق تتعلق بسكان بيت المقدس بجميع طوائفهم الدينية ، تتعلق بعقود البيع والشراء ، وحجج التمليك والوقفيات ، وعقود الزواج والخلع والطلاق ، وعقود الوصايا ، والودائع ، والنفقات ومعاشات الأيتام ، والقروض ، واستثمارات المرأة • وخصوصا فى شراء العقارات وتحديد أماكنها ، ووقفها ومنها أوقاف المغاربة فى الحى المعروف بهم فى مواجهة حائط البراق • والتى أزالته السلطات الإسرائيلية عام ١٩٦٧ • ومن هذه الوثائق ما هو خاص بالأربطة والمدارس والحمامات والأسبلة والأسواق • وعلى الرغم من محاولات السلطات الإسرائيلية الاستيلاء على بعض هذه الوثائق ، إلا أن هذه الخطة قد تم تصويرها على شريط ميكروفيلم تم إيداع نسخة منه فى المتحف الإسلامى بالقدس ونسخة فى معهد الدراسات الإسلامية فى مونتريال بكندا وثالثة فى الجامعة الأردنية وإن هذه النسخة يجب أن تستخدم مصر لاسترداد القدس وكما سبق لها استرداد طابا •

❖❖❖❖

هوامش البحث

١- سفر التكوين ١٢:٧

٢- جريس (سمير): القدس، المخططات الصهيونية، الاحتلال، التهويد، بيروت، ١٩٨١م، ص١-٣

٣- المرجع السابق: نفسه، ص٥-٦

٤- المسيري «د. عبدالوهاب محمد»: الايديولوجية الصهيونية، دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة، عالم المعرفة ١٩٨٨م، ص١٥٨-١٧٧

٥- المرجع السابق: نفسه، ص١٨٢-١٨٣

٦- فاروق «بهاء» فلسطين بالخرائط والوثائق، القاهرة بدون تاريخ طبع، ص٢٧٥

٧- جابر «فايز فهد»: القدس، ماضيها، حاضرها، مستقبلها، عمان ١٩٨٥م، ص٢٦٢-٢٦٣

٨- فاروق: نفسه، ص٢٧٥

٩- جريس: نفسه، ص٥٦

١٠- عبدالفتاح (د. كمال): «السمات العربية للمواقع الفلسطينية المهودة»، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ١٩٨٠م، المجلد الثالث، الطبعة الأولى ١٩٨٣م، ص٣٨٢-٣٨٥

١١- الأحمر «نجيب»: تهويد القدس، دائرة الإعلام والتوجيه المعنوي، منظمة التحرير الفلسطينة، عمان، بدون تاريخ، ص٦٦

١٢- جريس: نفسه، ص٤٤-٤٥

١٥- قهوجي «حبيب»: العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي منذ ١٩٤٨م، بغداد، ١٩٧٢م، ص١٧٦-١٧٨

١٦- المرجع السابق نفسه، ص١٣٨-١٨٤

١٧- المرجع نفسه: ص١٢٤

١٨- المرجع نفسه: ص١٤٨-١٧٣

١٩- الزرو «نواف جودت»: القدس بين مخططات التهويد الصهيونية ومسيرة النضال والتصدي، عمان ١٩٩١م، ص٣٦

١٨- جريس: نفسه، ص٣٦

١٩- المرجع السابق: نفسه، ص١٢٤-١٣٥

٢٠- المرجع نفسه، ص١٦٨ - ١٧٧

٢١- حسين «محمد رشيد عناب»: الاستيطان الصهيوني في القدس ١٩٦٧-١٩٩٣، رسالة ماجستير بجامعة النجاح الوطنية، نابلس، ٢٠٠١م، ص٥٣

٢٢- الزرو: نفسه، ص٣٥-٣٦

٢٣- قهوجي: نفسه، ص١٢٥-١٢٦

٢٤- جريس: نفسه، ص١٩٦ - ١٩٧

٢٥- منصور «د. عبدالقادر محمد»: القدس عقيدة وتاريخ، دار القلم العربي بسورية، ٢٠٠٣م، ص٢١٢-٢١٣

٢٦- العسلي «د. كامل جميل»: معاهد العلم في بيت المقدس، عمان، ١٩٨٣م، ص٣٢١-٣٢٢

٢٧- قهوجي: نفسه، ص١٢٤

٢٨- المرجع السابق: نفسه، ص ١٢٦ - ١٢٧

٢٩- المرجع نفسه: ص١٢٨

٣٠- المرجع نفسه: ص١٢٨ - ١٢٩

٣١- المرجع نفسه: اص١٢٩-١٣٠

٣٢- جريس: نفسه، ص١٣٦-١٣٨

٣٣- الزرو: نفسه، ص٣٩-٤٣

٣٤- المرجع السابق: نفسه، ٤٣-٤٤

٣٥- صحيفة معاريف: بتاريخ ١٩٩١/٥/٨م.

٣٦- عبدالفتاح: نفسه، ص٤٠٠

٣٧- الزرو: نفسه، ص٣٥-٥٦

٣٨- قهوجي: نفسه، ص١٣٣

٣٩- الخطيب «روحي»: الإجراءات الإسرائيلية لتهويد القدس بين ١٩٦٥-١٩٧٥م شئون فلسطينية، العددان ٤١-٤٢ بيروت ١٩٧٥م ص١٠٥-١٠٦

٤- حماد «مجدي» النظام السياسي الاستيطاني، دراسة مقارنة بين إسرائيل وجنوب افريقيا، بدون تاريخ طبع ومكان، ص١٩٥، الدقاق «إبراهيم» القدس في عشر سنوات ١٩٦٧-١٩٧٧، القدس ١٩٨١م، ص٣٤

٤- عناب: الاستيطان الصهيوني في القدس ص٨٤-٨٥

٤- العسلي «د. كامل جميل»: أجدادنا في ثرى بيت المقدس، عمان ١٩٨١م ص١١٧ - ١٣٢

٤- منصور «د. كميل» الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٤م، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ص٨٨

٤٤- المسيري: نفسه، ص٣٠٩ - ٣٥٣

٤٥- المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، جـ٦، ص١٩٨

٤٦- البديري «د. هند أمين»: أراضي فلسطين بين مزاعم الصهيونية وحقائق التاريخ، جامعة الدول العربية، ١٩٨٨م، ص٧-١٣

٤٧- المسيري: الايديولوجية الصهيونية، ص١٧٨

٤٨- جريدة الجيروساليم بوست، ٤ فبراير ١٩٨٨م.

٤٩- جريدة عل همشمار ٢٥ مارس ١٩٨٧م

٥٠- المسيري: نفسه، ص٢٩٣

٥١- المرجع السابق: نفسه، ص٢٩٨-٢٩٩

٥٢- دافار: في ٢٥ يوليو، ١٩٨٧م.

٥٣- اتحاد الجامعات العربية: القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي، الموصل ١٩٨٣م، جـ١، ص١٨٤

٥٤- جريدة الأهرام، في ٢٠٠٣/١١/٣١م